الباب الحادى والستون

فى ذكر الأحوال وشرحها

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب السهرورى - رحمه الله، قال: أخبرنا أبو طالب الزينى، قال: أخبرتنا كريمة المرزوية، قالت: أخبرنا أبو الهيثم الكشميهينى، قال: أخبرنا أبو عبد الله الفربرى، قال: أخبرنا أبو عبد الله البخارى، قال: حدثنا سليمان بن حرب، قال: حدثنا شعبة، عن قتادة، عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن أحب عبدًا لا يحبه إلا لله، ومن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار».

وأخبرنا شيخنا أبو زرعة طاهر بن أبى الفضل، قال أخبرنا أبو بكر بن خلف، قال أخبرنا أبو عبد الرحمن، قال أخبرنا أبو عمرو بن حيوة قال حدثنى أبو عبيد بن مؤمل عن أبيه، قال حدثنى بشر بن محمد، قال حدثنا عبد الملك بن وهب عن إبراهيم بن أبى عبلة، عن العرباض بن سارية، قال: كان رسول الله ﷺ يدعو:

«اللهم اجعل حبّك أحبَّ إلى من نفسى، وسمعى وبصرى، وأهلى ومالى، ومن الماء البارد»[1].

فكأنَّ رسول الله ﷺ طلب خالص الحبّ، وخالصُ الحبّ هو: أن يحبَّ الله تعالى بكليته، وذلك أن العبد قد يكون فى حال قائمًا بشرط حالِه بكحم العلم، والجبلّةُ تتقاضاه بضدّ العلم، مِثل أن يكون راضيًا والجبلّة قد تكره،

ويكون النظر إلى الانقياد بالعلم، لا إلى الاستعصاء بالجبلّة، فقد يحبَّ الله تعالى ورسوله بحكم الإيمان ويحب الأهل والولد بحكم الطبع.

وللمحبة وجوه، وبواعث المحبة فى الإنسان متنوعة، فمنها: محبة الروح، ومحبة القلب، ومحبة النفس، ومحبة العقل، فقول رسول الله ﷺ، وقد ذكر الأهل والمال والماء البارد - معناه: استئصال عروق المحبَّة بمحبة الله حتى يكون حب الله تعالى غالبًا؛ فيحبُّ الله تعالى بقلبه وروحه وكليته، حتى يكون حبَّ الله تعالى أغلبَ فى الطبع أيضا والجبلة من حبّ الماء البارد.

---

(١) متفق عليه.

وهذا يكون حبًّا صافيا لخواص تَنْغمرُ به وبنوره نار الطبع والجبلّة.

وهذا يكون حبَّ الذات عن مشاهدة بعكوف الروّح وخلوصه إلى مواطن القرب.

قال الواسطى: فى قوله تعالى ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[1] كما أنه بذاته بحبُّهم كذلك يحبون ذاته، فالهاء راجعة إلى الذات دون النعوت والصفات.

وقال بعضهم: المحبّ شرطه أن تلحقه سكرات المحبة؛ فإذا لم يكن ذلك لم يكن حبُّه فيه حقيقة، فإذن الحبّ حبان: حبّ عام، وحبّ خاص.

فالحبّ العام مقسَّر بامتثال الأمر، وربمّا كان حبًّا من معدن العلم بالآلآء والنعماء.

وهذا الحب مخرجه من الصفات.

وقد ذكر جمع من المشايخ الحبَّ فى المقامات؛ فيكون النظر إلى هذا الحب العام الذى يكون لكسب العبد فيه مدخل.

وأما الحب الخاص فهو حبّ الذات عن مطالعة الروح، وهو الحَبّ الذى فيه السكرات، وهو الاصطناع من الله الكريم لعبده، واصطفاؤه إياه.

وهذا الحب يكون من الأحوال؟ لأنه محض موهبة ليس للكسب فيه مدخل، وهو مفهوم من قول النبى ﷺ (أحبَّ إلىَّ من الماء البارد) لأنه كلام عن وجدان روح تلتذُّ بحبّ الذات، وهذا الحب روح، والحبُّ الذى يظهر عن مطالعة الصفات ويطلع من مطالع الإيمان قالب هذا الروح ولّما صحَّت محبَّتهم هذه أخبر الله تعالى عنهم بقوله ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾[2] لأن المحبَّ يذل لمحبوبه ولمحبوب محبوبه، وينشد:

لِعينٍ تُفَدَّى ألفُ عيْن وتُتقى ويُكرِمَ ألفُ للحبيب المكرَّم

وهذا الحب الخالص هو أصل الأحوال السنية وموجبها، وهو فى الأحوال كالتوبة فى المقامات فمن صحَّت توبته على الكمال تحقّق بسائر المقامات من الزهد والرضا والتوكل.. على ما شرحناه أولاً: ومَن صحَّت محبَّته هذه تحقّق بسائر الأحوال من الفناء والبقاء والصحو والمحوّ وغير ذلك.

والتوبة لهذا الحب أيضا بمثابة الجسمان، لأنها مشتملة على الحبِّ العام الذى هو لهذا الحب كالجسد ومن أخذ فى طريق المحبوبين، وهو طريق خاص من طريق المحبة

---

(١) من آية رقم ٥٤ من سورة المائدة.

(٢) من آية رقم ٥٤ من سورة المائدة.

يتكمل فيه ويجتمع له روح الحب الخاص مع قالب الحب العام الذى تشتمل عليه التوبة النصوح، وعند ذلك لا يتقلب فى أطوار المقامات. لأن التقلب فى أطوار المقامات والترقى من شىء منها إلى شىء طريقُ المحبِّين.

ومن أخذ فى طريق المجاهدة من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[1] ومن قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ يُنِيب﴾[2].

أثبتَ كَون الإنابة سببًا للهداية فى حقّ المحب

وفى حقّ المحبوب حرّج بالاجتباء غير مُعلل بالكسب فقال الله تعالى: ﴿اللهُ يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ فمن أخذ فى طريق المحبوبين يطوى بساط أطوار المقامات، ويندرج فيه صفوها وخالصها بأَتَمِّ وصفها والمقامات لا تقيده ولا تحبسه، وهو يُقيدها ويحبسها بترقّيه منها، وانتزاعه صفوها وخالصها؛ لأنه حيث أشرقت عليه أنوار الحب الخاص خلع ملابس صفات النفس ونعوتها.

والمقامات كلُّها مصفية للنعوت والصفات النفسانية، فالزهد يصفيه عن الرغبة، والتوكل يصفيه عن قلّه الاعتماد المتولّد عن جهل النفس، والرضا يصفيه عن ضربان عرق المنازعة، والمنازعة لبقاء جمود فى النفس ما أشرق عليها شموس المحبة الخاصة فبقى ظلمتها وجمودها.

فمن تحقق بالحب الخاص لانت نفسه وذهب جمودها، فماذا ينزع الزهد منه من الرغبةِ ورغبةُ الحبّ أحرقت رغبته؟

وماذا يُصفّ منه التوكل ومطالعة الوكيل حشو بصيرته ؟

وماذا يُسكن فيه الرضا من عروق المنازعة والمنازعةُ ممن لم تسلم كلّيتُه؟

قال الروزبارى: ما لم تخرج من كُلّيتك لا تدخل فى حدّ المحبة.

وقال أبو يزيد: من قتلته محبَّته فَدِيتُه رؤيته، ومن قتله عشقه فديته منادمته.

أخبرنا بذلك أبو زرعة عن ابن خلف، عن أبى عبد الرحمن قال: سمعت أحمد بن على بن جعفر يقول: سمعت الحسين بن علويه يقول: قال أبو يزيد ذلك.

---

(١) آية رقم ٦٩ من سورة العنكبوت.

(٢) آية رقم ١٣ من سورة الشورى.

فإذن، التقلّب فى أطوار المقامات لعوامّ المحبين، وطىّ بساط الأطوار لخواص المحبين وهم: المحبوبون: تخلّفت عن هممهم المقامات، وربما كانت المقامات على مدارج طبقات السموات؛ وهى مواطن من يتعثّر فى أذيال بقاياه.

قال بعض الكبار لإبراهيم الخواص: إلى ماذا أدّى بك التصوف؟

فقال: إلى التوكّل.

فقال: تسعى فى عمران باطنك!! أين أنت من الفناء فى التوكّل برؤية الوكيل؟

فالنفس إذا تحركت بصفتها متفلتةً من دائرة الزهد يردّها الزاهد إلى الدائرة بزهده. والمتوكل إذا تحركت نفسه بردّها بتوكله، والراضى يردّها برضاه.

وهذه الحركات من النفس بقايا وجودية تفتقر إلى سياسة العلم، وفى ذلك تنسيم روح القرب من بعيد، وهو: أداء حق العبودية مبلغ العلم، وبحسبه الاجتهاد والكسب.

ومن أخذ فى طريق الخاصة عرف طريق التخلّص من البقايا بالتستر بأنوار فضل الحقّ.

ومن اكتسى ملابس نور (أهل) القرب بروح دائمة العكوف محميّة عن الطوارق والصروف لا يزعجه طلب، ولا يوحشه سَلَب.

فالزهد، والتوكل، والرضَا كائن فيه، وهو غير كائن فيها، على معنى: أنه كيف تقلّب كان زاهدًا وإن رغب، لأنه بالحقّ، لا بنفسه، وإن رؤى منه الالتفاتُ إلى الأسباب فهو متوكل. وإن وُجد منه الكراهة فهو راض، لأن كراهته لنفسه، ونفسه للحق، وكراهته للحق أعيد إليه نفسه بدواعيها وصفاتها مطهرة موهوبة محمولة ملطوف بها، صار عين الداء دواؤه، وصار الإعلالُ شفاءه. وناب طلب الله له مناب كل طالب مِن زهدٍ وتوكل ورضا، أو صار مطلوبه من الله ينوب عنه كل مطلوب من زهد وتوكّل ورضا.

قالت رابعة: محبُّ الله لا يسكن أنينُه وحنينُه حتى يسكن مع محبوبه.

وقال أبو عبد الله القرشى: حقيقة المحبة أن تهب لمن أحببتَ كُلَّك ولا يبقى لك منك شىء.

وقال أبو الحسين الورّاق: السرور بالله من شدّة المحبة له، والمحبة فى القلب نارٌ تحرقُ كلَّ دنس.

وقال يحيى بن معاذ: صبر المحبِّين أشدُّ من صبر الزاهدين؛ واعجبًا، كيف يصبر الإنسان عن حبيبه؟

وقال بعضهم: من ادّعى محبة الله من غير تورّع عن محارمه فهو كـذّاب، ومـن ادّعـى محبة الجنة من غير إنفاق ملكه فهو كذاب، ومن ادّعى حبَّ رسول الله ﷺ من غير حبّ الفقراء فهو كذاب.

وكانت رابعة تنشد :

تَعصى الإلـه وأنت تُظهـر حبَّـه هـذا لعمـرى فـى الفعـال بديـع
لو كـان حُبُّك صادقـًا لأطعتُـه إنَّ المحـبَّ لمـن يحـبّ مطـيع

وإذا كان الحبُّ للأحوال كالتوبة للمقامات فَمن ادّعى حالاً يعتـبر حُبُّـه، ومـن ادّعـى محبةً تُعتـبر توبتـه. فـإنَّ التوبـة قـالب روح الحـب، وهـذا الـروح قيامـه بـهذا القـالب، والأحوال أعراض قِوامها بجوهر الروح.

وقال سحنون: ذهب المحبُّون لله بشرف الدنيا والآخرة؛ لأن النبى ﷺ قـال: «المـرء مع من أحب»[1] فهم مع الله تعالى.

وقال أبو يعقوب السوسى: لا تصحُّ المحبـة حتـى تخـرج مـن رؤيـة المحبـة إلى رؤيـة المحبوب بفناء علم المحبة من حيث كان له المحبوب فى الغيب ولم يكن هذا بالمحبـة، فإذا خرج المحب إلى هذه النسبة كان محبًا من غير محبّة.

سئل الجنيد عـن المحبـة، قـال: دخـول صفـات المحبـوب علـى البـدل مـن صفـات المحبّ. هذا معنى قوله تعالى [فى الحديث القدسى][2]: «فإذا أحببته كنـت لـه سمعًـا وبصرًا».

وكذلك أن المحبـة إذا صَفَت، وكَمُلت لا تـزال تجـذب بوصفـها إلى محبوبـها، فـإذا انتهت إلى غاية جهدها وقفت والرابطة متأصلة متأكدة، وكمال وصف المحبة أزال الموانع من الحبّ، وبكمال وصف المحبة تجذب صفة المحبوب تعطّفًا على المحب المخلص مـن موانع قادحة فى صدق الحـب. ونظـرًا إلى قصـوره بعـد اسـتنفاد جـهده، فيعـود المحـب بفوائد اكتساب الصفات من المحبوب، فيقول عند ذلك:

أنـا مَـن أهـوى ومـن أهـوى أنـا نحـن روحـان حـللنا بدنـا
فـإذا أبصـرتنـى أبصرتـه وإذا أبصرتُـه أبصرتنـا

وهذا الذى عبَّرنا عنه حقيقـة قـول رسـول الله ﷺ: «تخلّقـوا بـأخلاق الله»[3]؛ لأنـه بنزاهة النفس، وكمال التزكية يستعد للمحبة، والمحبة موهبة غير معللة بالتزكية.

---

(١) رواه مسلم.
(٢) إضافة من عندنا.
(٣) رواه الطبرانى.

ولكن سنّة الله جارية أن يُزكّى نفوس أحبائه بحسن توفيقه وتأييده.

وإذا منح نزاهة النفس وطهارتها، ثم جذب روحه بجاذب المحبة خلع عليه خلع الصفات والأخلاق ويكون ذلك عنده رتبة فى الوصول، فتارة ينبعث الشوق من باطنه إلى ما وراء ذلك؛ لكون عطايا الله غير متناهية.

وتارةً يتسلّى بما منح فيكون ذلك وصولَه الذى يُسكن نيران شوقه.

ويباعث الشوق تستقر الصفات الموهوبة المحققة رتبة الوصول الوصول عند المحب..

ولولا باعث الشوق رجع القهقرى، وظهرت صفات نفسه الحائلة بين المرء وقلبه.

ومَن ظنَّ الوصول غير ما ذكرناه، أو تخايل له غير هذا القدر فهو متعرِّض لمذهب النصارى فى اللاهوت والناسوت.

وإشارات الشيوخ فى الاستغراق والفناء كلها عائدة إلى تحقيق مقام المحبة، باستيلاء نور اليقين وخلاصة الذكر على القلب، وتحقيق حقّ اليقين بزوال اعوجاج البقايا. وأمَنَتِ اللوث الوجودى من بقاء صفات النفس.

وإذا صحّت المحبّة ترتبت عليها الأحوال وتبعتها.

سئل الشبلى عن المحبة، فقال: كأسٌ لها وهج إذا استقرّ فى الحواس وسكن فى النفوس تلاشت.

وقيل: للمحبة ظاهر وباطن: ظاهرها اتباع رضا المحبوب، وباطنها: أن يكون مفتونًا بالحبيب عن كل شىء، ولا يبقى فيه لغيره ولا لنفسه.

فمن الأحوال السنيّة فى المحبَّة الشوق، ولا يكون المحبّ إلا مشتاقًا أبدًا؛ لأن أمر الحق تعالى لا نهاية له؛ فما من حال يبلغها المحبُّ إلا ويعلم أنَّ ما وراء ذلك أوفَى منها وأتمُّ :

حُزنى كحسنك لا لذا أمَدٌ ينهى إليه ولا لذا أمَدُ

ثم هذا الشوق الحادث عنده ليس من كسبه ، وإنما هو موهبة خصَّ بها المحبَّين .

قال أحمد بن الحوارى : دخلت على أبى سليمان الدارنى فوجدته يبكى ، فقلت : ما يبكيك رحمك الله ؟ .

قال : ويحك يا أحمد ، إذا جَنَّ هذا الليل افترشت أهل المحبة أقدامهم ، وجرت دموعهم على خدودهم وأشرف الجليل جلّ جلاله عليهم بقول : بعينى مَن تلذَّذ بكلامى واستراح إلى مناجاتى ، وإنّى مطلّع عليهم فى خلواتهم أسمع أنينهم وأرى بكاءهم .. يا جبريل ناد فيهم : ما هذا البكاء الذى أراه فيكم .. هل أخبركم مخبرٌ أنَّ حبيبًا يعذّب أحبابه بالنار ؟ ..

كيف يجمل بى أن أعذّب قومًا إذا جنَّ عليهم الليل تملّقوا إلىّ ..

فَبى حلفتُ إذا ورودا القيامةَ علىَّ أن أسفر لهم عن وجهى ، وأبيحهم رياض قدسى .

وهذه أحوال قوم من المحبين أقيموا مقام الشوق ، والشوق من المحبة كالزهد من التوبة : إذا استقرت التوبة ظهر الزهد ، وإذا استقرت المحبة ظهر الشوق .

قال الواسطى فى قوله تعالى : ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾[1] قال شوقًا واستهانةً بمن وراءه ﴿قَالَ هُمْ أُولاَءِ عَلَى أَثَرِى﴾[2] من شوقه إلى مكالمة الله ، ورمى بالألواح لما فاته من وقته .

قال أبو عثمان : الشوق ثمرةُ المحبة ؛ فمن أحب الله اشتاق إلى لقائه .

وقال أيضا فى قوله تعالى : ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ﴾[3] تقربةً للمشتاقين ، معناه : إنى أعلم أن شوقكم إلىّ غالب ، وأنا أجّلت للقائكم أجلا ، وعن قريب يكون وصولكم إلى من تشتاقون إليه .

وقال ذون النون : الشوق أعلى الدرجات وأعلى المقامات ، فإذا بلغها الإنسان استبطأ الموت شوقًا إلى ربّه ، ورجاءً للقائه والنظر إليه .

وعندى ، أن الشوق الكائن فى المحبِّين إلى رتب يتوقعونها فى الدنيا غير الشوق الذى يتوقعون به ما بعد الموت ، والله تعالى يكاشف أهل ودّه بعطايا يجدونها علمًا وبطلبونها ذوقًا . فكذلك يكون شوقهم ليصير العلم ذوقًا .

---

(١) من الآية رقم ٨٤ من سورة طه .

(٢) من الآية رقم ٨٤ من سورة طه .

(٣) آية رقم ٥ من سورة العنكبوت .

وليس من ضرورة مقام الشوق استبطاء الموت ، وربما الأصحاء من المحبين يتلذذون بالحياة لله تعالى كما قال الجليل لرسول اللّه ﷺ : ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى للّه رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

فمن كانت حياته لله منحه الكريم لذّة المناجاة والمحبة ، فتمتلىء عينه من النقد[1] ، ثم يكاشفه من المنح والعطايا ما يتحقق بمقام الشوق من غير الشوق إلى ما بعد الموت .

وأنكر بعضهم مقام الشوق ، وقال إنما يكون الشوق لغائب ، ومتى يغيب الحبيب عن الحبيب حتى يشتاق ؟

ولهذا سئل الأنطاكىّ عن الشوق ، فقال : إنما يُشتاق إلى الغائب ، وما غبتُ عنه منذ وجدتُه .

وإنكار الشوق على الإطلاق لا أرى له وجهًا .. ؛ لأن رتب العطايا والمنح من أنصبة القرب إذا كانت غير متناهية كيف ينكر الشوق من المحب ؟ فهو غير غائب وغير مشتاق بالنسبة إلى ما وجد ، ولكن يكون مشتاقًا ما لم يجد من أنصبة القرب ، فكيف يُمنع حال الشوق والأمر هكذا .. ؟

ووجه آخر : ان الإنسان لابدُّ له من أمور يردّها حكم الحال لموضع بشريته وطبيعته وعدم وقوفه على حدّ العلم الذى يقتضيه حكم الحال ، ووجود هذه الأمور مثير لنار الشوق ، ولا نعنى بالشوق إلا مطالبةً تنبعث من الباطن إلى الأولى والأعلى من أنصبة القرب . وهذه المطالبة كائنة فى المحبين ، فالشوق إذن كائن لا وجه لإنكاره .

وقد قال قوم : شوق المشاهدة واللقاء أشدّ من شوق البعد والغيبوبة ، فيكون فى حال الغيبوبة مشتاقًا إلى اللقاء ، ويكون فى حال اللقاء والمشاهدة مشتاقًا إلى زوائد ومبار[2] من الحبيب وأفضاله ، وهذا هو الذى أراه وأختاره .

وقال فارس : قلوب المشتاقين منورّةٌ بنور الله ، فإذا تحركت اشتياقًا أضاء النور ما بين المشرق والمغرب ، فيعرضهم الله على الملائكة فيقول : هؤلاء المشتاقون إلىّ أشهدكم إنّى إليهم أشوق .

وقال أبو يزيد : لو أن الله حجب أهل الجنة عن رؤيته لاستغاثوا من الجنة كما يستغيث أهل النار من النار.

---

(١) النقد : لعل المراد بها النظر أو العطاء .

(٢) مبار : جمع مبرة والمبرة البرّ والعطف واللطف .

سئل عطاء الله عن الشوق، فقال: هو احتراق الحشا وتلّهب القلوب وتقطّع الأكباد من البعد بعد القرب .

سئل بعضهم : هل الشوق أعلى أم المحبة ؟

فقال : المحبة ، لأن الشوق يتولّد منها ، فلا مشتاق إلا من غَلبه الحب ، فالحب أصل والشوق فرع .

وقال النضرابادى : للخلق كلهم مقام الشوق لا مقام الاشتياق ، ومن دخل فى حال الاشتياق هام فيه حتى لا يُرى له أثر ولا قرار .

ومنها الأنس ، وقد سئل الجنيد عن الأنس ، فقال : ارتفاع الحشمة مع وجود الهيبة .

وسئل ذو النون عن الأنس فقال : هو انبساط المحب إلى المحبوب .

قيل : معناه قول الخليل ﴿أرنى كَيْفَ تُحْيى الْمَوْتَى﴾[1] وقول موسى ﴿أرنى أنْظُر إلَيكَ﴾[2] .

وأنشد لرويم :

شغلت قلبى بما لديك فلا ... ينفك طولَ الحياة عن فكر
أنستنى منك بالوداد فقد ... أوحشتنى من جميع ذا البشر
ذكرك لى مؤنسٌ يعارضنى ... يوعدنى عنك منك بالظفر
وحيثما كنت يا مدى همى ... فأنت منّى بموضع النظر

وروى أن مطرف بن الشخير كتب إلى عمر بن عبد العزيز : ليكن أنسك بالله وانقطاعك إليه، فإن لله عبادًا استأنسوا بالله ، وكانوا فى وحدتهم أشدّ استئناسًا من الناس فى كثرتهم، وأوحش مايكون الناس آنس مايكونون، وآنس ما يكون الناس أوحش مايكونون .

قال الواسطى : لا يصل إلى محل الأنس من لم يستوحش من الأكوان كلها .

وقال أبو الحسين الوراق : لا يكون الأنس بالله إلا ومعه التعظيم ، لأن كل من استأنستَ به سقط عن قلبك تعظيمُه إلا لله تعالى ، فإنك لا تتزايد به أنسًا إلا ازددت منه هيبة وتعظيمًا .

---

(١) آية ٢٦٠ من سورة البقرة .

(٢) آية رقم ١٤٣ من سورة الأعراف .

قالت رابعة : كل مطيع مستأنس : وأنشدت :

ولقد جعلتُكَ فى الفؤاد مُحدِّثى وأبحتُ جسمى من أراد جُلوسى
فالجسمُ منِّى للجليس مؤانسٌ وحبيبُ قلبى فى الفؤاد أنيسى

وقال مالك بن دينار : من لم يأنس بمحادثة الله تعالى عن محادثة المخلوقين فقد قلّ عملُه وعمى قلبه وضَيَّع عُمره . قيل لبعضهم : من معك فى الدار؟ قال : الله تعالى معى ، ولا يستوحش من أنس بربّه .

وقال الخرَّاز : الأنس محادثة الروح مع المحبوب فى مجالس القرب .

ووصف بعض العارفين صفة أهل المحبة الواصلين ، فقال : جَدَّد لهم الودّ فى كل طَرفةٍ بدوام الاتصال . وآواهم فى كنفه بحقائق السكون إليه حتى أنَّت قلوبُهُم وحَنَّت أرواحهم شوقًا . وكان الحب والشوق منهم إشارةً من الحق إليهم عن حقيقة التوحيد وهو الوجود بالله ، فذهبت مناهم وانقطعت آمالهم عنده لِما بان منه لهم ، ولو أنَّ الحقَّ تعالى أمر جميع الأنبياء يسألون لهم ما سألوه بعض ما أعدّ لهم من قديم وحدانيته ودوام أزليته وسابق علمه ، وكان نصيبهم معرفتَهم به وفراغ همهم عليه ، واجتماع أهوائهم فيه ، فصار يحسدهم من عبيده العموم ، أن رفع عن قلوبهم جميع الهموم . وأنشد فى معناه :

كانت لقلبى أهواءٌ مفرَّقة فاستجمعتْ إذ رأتك النفسُ أهوائى
فصار يحسدنى من كنت أحسده وصرت مولى الورى مذ صرت مولائى
تركتُ للناس دنياهم ودينَهم شُغلاً بذكرك يا دينى ودنيائى

وقد يكون من الأنس : الأنس بطاعة الله ، وذكره ، وتلاوة كلامه ، وسائر أبواب القربات . وهذا القدر من الأنس نعمة من الله تعالى ومنحة منه ، ولكن ليس هو حال الأنس الذى يكون للمحبين والأنس حال شريف يكون عند طهارة الباطن وكنسه بصدق الزهد ، وكمال التقوى ، وقطع الأسباب والعلائق ، ومحو الخواطر والهواجس .

وحقيقتُه عندى : كنس الوجود بثقل لائح العظمة وانتشار الروح فى ميادين الفتوح وله استقلال بنفسه يشتمل على القلب فيجمعه به عن الهيبة ، وفى الهيبة اجتماع الروح وربوبه إلى محل النفس .

وهذا الذى وصفناه من أنس الذات ، وهيبة الذات ، يكون فى مقام البقاء بعد العبور على ممرّ الغناء ، وهما غير الأنس والهيبة اللذين يذهبان بوجود الغناء ؛ لأن الهيبة والأنس قبل الغناء ظهر من مطالعة الصفات من الجلال والجمال ، وذلك مقام التلوين .

وما ذكرناه بعد الغناء فى مقام التمكين ، والبقاء من مطالعة الذات .

ومن الأنس : خضوع النفس المطمئنة ، ومن الهيبة : خشوعها .

والخضوع والخشوع يتقاربان ويفترقان بفرق لطيف يدرك بإيماء الروح .

ومنها : القرب :

قال الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام : ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾[1] .

وقد ورد : (أقرب ما يكون العبد من ربّه فى سجوده) فالساجد إذا أذيق طعم السجود يقرب ؛ لأنه يسجد ويطوى بسجوده بساط الكون ما كان وما يكون .

ويسجد على طرف رداء العظمة ، فيقرب .

قال بعضهم : إنّى لأجد الحضور ، فأقول : يا أله ، أو يارب ، فأجد ذلك علىَّ أثقل من الجبال . قيل : ولم ؟

قال : لأن النداء يكون من وراء حجاب ، وهل رأيت جليسًا ينادى جليسه ، وإنما هى إشارات وملاحظات ، ومناغاة ، وملاطفات .

وهذا الذى وصفَه مقام عزيز متحقّق فيه القرب ، ولكنه مشعر بمحو ، ومؤذن بسكر ، يكون لمن غابت نفسه فى نور روحه ؛ لغلبة سكره وقوّة محوه ، فإذا صحا وأفاق تتخلّص الروح من النفس والنفس من الروح ، ويعود كل من العبد إلى محله ومقامه ، فيقول : يا أله ، ويا رب بلسان النفس المطمئنة العائدة إلى مقام حاجتها ومحل عبوديتها .

والروح تستقل بفتوحه وبكمال الحال عن الأقوال ، وهذا أتم وأقرب من الأول ؛ لأنه وفّى حق القُرب باستقلال الروح بالفتوح ، وأقام رسم العبودية بعود حكم النفس إلى محل الافتقار ، وحَظُّ القُرب لا يزال بتوفر نصيب الروح بإقامة رسم العبودية من النفس .

وقال الجنيد : إن الله تعالى يقرب من قلوب عباده على حسب ما يرى من قرب قلوب عباده منه ، فانظر ماذا يقرب من قلبك .

وقال أبو يعقوب السوسى : ما دام العيد يكون بالقرب لم يكن قريبًا حتى يغيب عن رؤية القرب بالقرب ، فإذا ذهب عن رؤية القرب بالقرب فذلك قرب ، وقد قال قائلهم:

قد تحققتك فى السرّ ... فناجاك لسانى
فاجتمعنا لمعان ... وافترقنا لمعان
إن يكن غيَّبَكَ التعظيمَ ... عن الحظ عيانى
فلقد صيّرك الوجد ... من الأحشاء دانى

---

(١) آية رقم ١٩ من سورة العلق .

قال ذو النون : ما ازداد أحدٌ من الله قُربةً إلا إزداد هيبة .

وقال سهل : أدنى مقام من مقامات القرب الحياءُ .

وقال النصراباذى : باتِّباع السنة تُنال المعرفة ، وبأداء الفرائض تنال القربة ، وبالمواظبة على النوافل تنال المحبة .

ومنها : الحياء :

والحياء على الوصف العام والوصف الخاص .

فأما الوصف العام فما أمر به رسول الله ﷺ فى قوله : (استحيوا من الله حق الحياء) ، قالوا : إنا نستحيى يا رسول الله . قال : (ليس ذلك ولكن من استحيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى وليذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء ..) وهذا الحياء من المقامات .

وأما الحياء الخاص فمن الأحوال : وهو ما نقل عن عثمان رضى الله عنه أنه قال : إنى لأغتسل فى البيت المظلم فأنطوى حياءً من الله .

أخبرنا أبو زرعة ، عن خلف ، عن أبى عبد الرحمن ، قال : سمعت أبا العباس البغدادى يقول : سمعت أحمد السقطى بن صالح يقول : سمعت محمد بن عبدون يقول : سمعت أبا العباس المؤدب يقول : قال لى سرىّ :

احفظ عنّى ما أقول لك : إن الحياء والأنس يطوفان بالقلب ، فإذا وجدا فيه الزهد والورعَ حَطّا ، وإلا رحلا .

والحياء : إطراق الروح إجلالاً لعظيم الجلال ، والأنس التذاذ الروح بكمال الجمال ، فإذا اجتمعنا فهو الغاية فى المنى والنهاية فى العطاء .

وأنشد شيخ الإسلام :

أشتاقه فإذا بدا أطرقت من إجلاله

لا خيفةً بل هيبةً وصيانة لجماله

الموت فى إدباره والعيش فى إقباله

وأصدُّ عنه إذا بدا وأروم طيف خياله

قال بعض الحكماء : من تكلّم فى الحياء ، ولا يستحى من الله فيما يتكلم به ، فهو مستدرج .

وقال ذو النون : الحياء وجود الهيبة فى القلب مع حشمة ما سبق منك إلى ربّك .

وقال ابن عطاء الله : العلم الأكبر الهيبةُ والحياء ؛ فإذا ذهب عنه الهيبة والحياء فلا خير فيه .

وقال أبو سليمان : إن العباد عملوا على أربع درجات : على الخوف ، والرجاء ، والتعظيم ، والحياء . وأشرفهم منزلة من عمل على الحياء ، لمّا أيقن أن الله تعالى يراه على كل حال استحيا من حسناته أكثر مما استحيا العاصون من سيئاتهم .

وقال بعضهم : الغالب على قلوب المستحيين : الإجلالُ والتعظيم دائمًا عند نظر الله إليهم .

ومنها : الاتصال :

قال النورى : الاتصال مكاشفات القلوب ومشاهدات الأسرار .

وقال بعضهم : الاتصال وصول السرّ إلى مقام الذهول .

وقال بعضهم : الاتصال أن لا يشهد العبدُ غير خالقه ، ولا يتصل بسرِّه خاطر لغير صانعه .

وقال سهل بن عبد الله: حُرِّكوا بالبلاء فتحركوا، ولو سكنوا اتصلوا.

وقال يحيى بن معاذ الرازى: العمال أربعة: تائب، وزاهد، ومشتاق، وواصل.

فالتائب محجوب بتوبته، والزاهد محجوب بزهده، والمشتاق محجوب بحاله، والواصل لا يحجبه عن الحق شيء.

وقال أبو سعيد القرشى: الواصل الذى يصله الله فلا يخشى عليه القطع أبدًا، والمتصل الذى بجهده يتصل، وكلما دنا انقطع.

وكأن هذا الذى ذكره حال المريد والمراد؛ لكون أحدهما مبادأ بالكشوف، وكون الآخر مردودًا إلى الاجتهاد.

وقال أبو يزيد: الواصلون فى ثلاثة أحرف: هممهم لله، وشغلهم فى الله، ورجوعهم إلى الله.

وقال السيارى: الوصول مقام جليل، وذلك أن الله تعالى إذا أحبّ عبدًا أن يوصله اختصر عليه الطريق وقرّب إليه البعيد.

وقال الجنيد: الواصل هو الحاصل عند ربّه.

وقال رويم: أهل الوصول أوصل الله إليهم قلوبهم، فهو محفوظو القوى، ممنوعون من الخلق أبدًا.

وقال ذو النون: ما رجع من رجع إلا من الطريق، وما وصل إليه أحد فرجع عنه.

واعلم أن الاتصال والمواصلة أشار إليه الشيوخ.

وكلٌ من وصل إلى صفو اليقين بطريق الذوق والوجدان فهو من رتبة الوصول، ثم يتفاوتون، فمنهم من يجد الله بطريق الأفعال، وهو رتبة فى التجلّى فيفنى فعله وفعل غيره لوقوفه مع فعل الله، ويخرج فى هذه الحالة من التدبير والاختيار، وهذه رتبة فى الوصول.

ومنهم من يوقف فى مقام الهيبة والأنس بما يكاشف قلبه به من مطالعة الجمال والجلال.

وهذا تجلى عن طريق الصفات، وهو رتبة فى الوصول.

ومنهم من ترقّى لمقام الفناء مشتملاً على باطنه أنوار اليقين والمشاهدة، مغيبًا فى شهوده عن وجوده، وهذا حزب من تجلّى الذات لخواصّ المقرّبين، وهذا المقام رتبة فى الوصول.

وفوق هذا حقّ اليقين.

ويكون من ذلك فى الدنيا للخواص لُمح: وهو سريان نور المشاهدة فى كلية العبد حتى يحظى به روحه وقلبه ونفسه حتى قالبه، وهذا من أعلى رتب الوصول.

فإذا تحقّقت الحقائق يعلم العبد مع هذه الأحوال الشريفة أنه بَعْد فى أوّل المنزل فأين الوصول؟ هيهات منازل طريق الوصول.. لا تَقطع أبد الآباد فى عمر الآخرة الأبدىّ، فكيف فى العُمر القصير الدنيوى؟!

ومنها: القبض والبسط:

وهما حالان شريفان قال الله تعالى: ﴿وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾[1].

---

(١) آية ٢٤٥ من سورة البقرة.

وقد تكلم فيهما الشيوخ وأشاروا بإشارات هى علامات القبض والبسط.

ولم أجد كشفًا عن حقيقتهما؛ لأنهم اكتفوا بالإشارة، والإشارة تُقنع الأهل.

وأحببت أن أشبع الكلام فيهما لعلّه يتشوّق إلى ذلك طالب، ويحبُّ بسط القول فيه والله أعلم.

واعلم أن القبض والبسط لهما موسم معلوم ووقت محتوم لا يكونان قبله، ولا يكونان بعده.

ووقتُهما وموسُمهما فى أوائل حال المحبة الخاصة، لا فى نهايتها، ولا قبل حال المحبة الخاصة.

فمن هو فى مقام المحبة العامة الثابتة بحكم الإيمان لا يكون له قبض ولا بسط، وإنما يكون له خوف ورجاء وقد يجد شبه حال القبض، وشبه حال البسط، ويظن ذلك قبضًا وبسطًا، وليس هو ذلك، وإنما هو هَم يعتريه فيظّنه قبضا، واهتزازٌ نفسىّ ونشاط طبيعى يظنه بسطًا..

والهمُّ والنشاط يصدران من محل النفس ومن جوهرها لبقاء صفاتها، ومادامت صفة «الأمّارة» فيها بقية على النفس يكون منها الاهتزاز والنشاط. والهمَّ: وهج ساجور[1] النفس.

والنشاط: ارتفاع موج النفس عند تلاطم بحر الطبع.

فإذا ارتقى من حال المحبة العامة إلى أوائل المحبة الخاصة يصير ذا حال، وذا قلب، وذا نفس لوّامة، ويتناوب القبض والبسط فيه بعد ذلك، لأنه ارتقى من رتبة الإيمان إلى رتبة الإيقان وحال المحبّة الخاصة فيقبضه الحق تارة ويبسطه أخرى.

قال الواسطى: يقبضك عملك ويبسطك فيما له.

وقال النورى: يقبضك بإيّاك، ويبسط لإيّاه.

واعلم أن وجود القبض لظهور صفة النفس وغلبتها، وظهور البسط لظهور صفة النفس وغلبته.

والنفس ما دامت لوّامة فتارةً مغلوبة، وتارة غالبة، والقبض والبسط باعتبار ذلك منها.

---

(١) سجرت التنور: أو قدته وأحميته، والساجور: خشبة تعلق فى عنق الكلب.

وصاحب القلب تحت حجاب نورانىّ لوجود قلبه، كما أن صاحب النفس تحت حجاب ظلمانّى لوجود نفسه، فإذا ارتقى من القلب، وخرج من حجابه لا يقيدّه الحال ولا يتصرف فيه فيخرج من تصرف القبض والبسط حينئذ، فلا يقبض ولا يبسط مادام متخلّصًا من الوجود النورانى الذى هو القلب ومتحققًا بالقرب من غير حجاب النفس والقلب، فإذا عاد إلى الوجود من الفناء والبقاء يعود إلى الوجود النورانى الذى هو القلب، فيعود القبض والبسط إليه عند ذلك، ومهما تخلّص إلى الفناء والبقاء فلا قبض ولا بسط.

قال فارس: أولاً القبض، ثم البسط، ثم لا قبض ولا بسط؛ لأن القبض والبسط يقع فى الوجود فأما مع الفناء والبقاء فلا.

ثم إن القبض قد يكون عقوبة الإسراف فى البسط؛ وذلك أن الوارد من الله تعالى يرد على القلب فيمتلئ القلب منه روحًا وفرحًا واستبشارًا، فتسترقُ النفسُ السمَع عند ذلك وتأخذ نصيبها، فإذا وصل أثر الوارد إلى النفس طغت وأفرطت فى البسط حتى تشاكل البسطُ نشاطًا، فتقابل بالقبض عقوبة.

وكل القبض إذا فتش لا يكون إلا من حركة النفس وظهورها بصفتها.

ولو تأدّبت النفس، وعدلت، ولم تَجر بالطغيان تارة وبالعصيان أخرى ما وجد صاحبُ القلب القبض. وما دام روحُه وأنسه. ورعايةُ الاعتدال الذى يَسدُّ باب القبض متلقى من قوله تعالى ﴿لِكيْلا تَأسَوْا عَلَىَ مَا فَاتَكُم وَلاَ تَفرحُوا بمَا آتاكُمْ﴾[1] فوارد الفرح مادام موقوفًا على الروح والقلب لا يكثف ولا يستوجب صاحبه القبض، سيما إذا لطف بالفرح بالوارد بالإيواء إلى الله تعالى.

وذا لم يلتجئ بالإيواء إلى الله تعالى تطلعت النفس وأخذت حظّها من الفرح، وهو الفرح بما أتى الممنوع منه، فمن ذلك القبض فى بعض الأحايين، وهذا من ألطف الذنوب الموجبة للقبض.

وفى النفس، من حركاتها، وصفاتها، وثباتٌ متعددةٌ موجبةٌ للقبض.

ثم الخوف والرجاء لا يعدمهما صاحب القبض والبسط ولا صاحب الأنس والهيبة؛ لأنهما من ضرورة الإيمان فلا ينعدمان، وأما القبض والبسط فينعدمان عند صاحب الإيمان لنقصان الحظ من القلب، وعند صاحب الفناء والبقاء والقرب لتخلصه من القلب.

---

(١) آية رقم ٢٣ من سورة الحديد.

وقد يرد على الباطن قبض وبسط ولا يعرف سببهما.

ولا يخفى سبب القبض والبسط إلا على قليل الحظّ من العلم الذى يُحكم علم الحال ولا علم المقام. ومن أحكم علم الحال والمقام ولا يخفى عليه سبب القبض والبسط، وربمًا يشتبه عليه سبب القبض والبسط كما يشتبه عليه الهمُّ بالقبض والنشاط بالبسط، وإنما علم ذلك من استقام قلبه.

ومن عدم القبض والبسط وارتقى منهما فنفسه مطمئنة لا تنقدح من جوهرها نارٌ توجب القبض، ولا يتلاطم بحر طبعها مع أهوية[1] الهوى حتى يظهر منه البسط.

وربما صار لمثل هذا القبض والبسط فى نفسه لا من نفسه، فتكون نفسه المطمئنة بطبع القلب فيجرى القبض والبسط فى نفسه المطمئنة، وما لقلبه قبض ولا بسط؛ لأن القلب متحصنٌ بشعاع نور الروح مستقر فى دعة القرب فلا قبض ولا بسط.

ومنها: الفناء والبقاء:

وقد قيل: الفناء أن يفنى عن الحظوظ فلا يكون له فى شىء حظٌ، بل يفنى عن الأشياء كلّها شغلاً بمن فنى فيه. وقد قال عامر بن عبد الله: لا أبالى امرأة رأيت أم حائطًا.

ويكون محفوظا فيما لله عليه، مصروفًا عن جميع المخالفات، والبقاء يعقبه، وهو أن يفنى عماله ويبقى بما لله تعالى.

وقيل: الباقى أن تصير الأشياء كلها له شيئًا واحدًا، فيكون كل حركاته فى موافقة الحق دون مخالفته، فكان فانيًا عن المخالفات، باقيًا فى الموافقات.

وعندى أنَّ هذا الذى ذكره هذا القائل هو مقام صحة التوبة النصوح، وليس من الفناء والبقاء فى شىء!!

ومن الإشارة إلى الفناء ما روى عبد الله بن عمر أنه سلمّ عليه إنسان وهو فى الطواف فلم يردّ عليه، فشكاه إلى بعض أصحابه، فقال له: كنا نتراءى الله فى ذلك المكان.

وقيل: الفناء هو الغيبة عن الأشياء، كما كان فناء موسى حين تجلّى ربُّه للجبل.

وقال الخراز: الفناء هو التلاشى بالحق، والبقاء هو الحضور مع الحق.

وقال الجنيد: الفناء استعجام الكلّ عن أوصافك واشتغال الكل منك بكليته.

---

(١) الأهوية بضم الهمزة: الوهدة العميقة.

وقال إبراهيم بن شيبان: علم الفناء والبقاء يدور على إخلاص الوحدانية وصحة العبودية، وما كان غير هذا فهو من المغاليط والزندقة.

وسئل الخراز: ما علاقة الفانى؟ قال: علامة من ادّعى الفناء ذهابُ حظّه من الدنيا والآخرة إلا من الله تعالى.

وقال أبو سعيد الخراز: أهلُ الفناء فى الفناء صحتَّهم أن يصحبهم علم البقاء، وأهل البقاء فى البقاء صحتهم أن يصحبهم علم الفناء.

واعلم أن أقاويل الشيوخ فى الفناء والبقاء كثيرة؛ فبعضها إشارة إلى فناء المخالفات وبقاء الموافقات وهذا تقتضيه التوبة النصوح، فهو ثابت بوصف التوبة.

وبعضها يشير إلى زوال الرغبة والحرص والأمل، وهذا يقتضيه الزهد.

وبعضها إشارة إلى فناء الأوصاف المذمومة وبقاء الأوصاف المحمودة وهذا يقتضيه تزكية النفس وبعضها إشارة إلى حقيقة الفناء المطلق، وكلّ هذه الإشارات فيها معنى الفناء من وجه.

ولكن الفناء المطلق هو ما يستولى من أمر الحق سبحانه وتعالى على العبد، فيغلب كونُ الحق سبحانه وتعالى على كون العبد.

وهو ينقسم إلى فناء ظاهر، وفناء باطن.

فأما الفناء الظاهر: فهو أن يتجلّى الحق سبحانه وتعالى بطريق الأفعال ويسلب عن العبد اختياره وإراداته، فلا يرى لنفسه ولا لغيره فعلا إلا بالحق، ثم يأخذ فى المعاملة مع الله بحسبه، حتى سمعت أن بعض من أقيم فى هذا المقام من الفناء كان يبقى أيامًا لا يتناول الطعام والشراب حتى يتجرد له فعل الحق فيه ويقبضٌ الله له من يطعمه ويسقيه كيف شاء وأحبَّ.

وهذا لعمرى فناء؛ لأنه فنى عن نفسه، وعن الغير، نظرًا إلى فعل الله تعالى بفناء فعل غير الله.

والفناء الباطن: أن يكاشف تارة بالصفات، وتارة بمشاهدة آثار عظمة الذات، فيستولى على باطنه أمر الحق حتى لا يبقى له هاجس ولا وسواس.

وليس من ضرورة الفناء أن يغيب إحساسه، وقد يتفق غيبة الإحساس لبعض الأشخاص، وليس ذلك من ضرورة الفناء على الإطلاق.

وقد سألت الشيخ أبا محمد بن عبد الله البصرى، وقلت له: هل يكون بقاء المتخيَّلات فى السرّ ووجود الوسواس من الشرك الخفى؟ وكان عندى أن ذلك من الشرك الخفىّ، فقال لى:

هذا يكون فى مقام الفناء ولم يذكر أنه هل هو من الشرك الخفىّ أم لا؟!

ثم ذكر حكاية مسلم بن يسار أنه كان فى الصلاة فوقعت أسطوانة فى الجامع، فانزعج لهدَّتها أهل السوق، فدخلوا المسجد، فرأوه فى الصلاة ولم يحسَّ بالأسطوانة ووقوعها، فهذا هو الاستغراق والفناء باطنًا.

ثم قد يتسع دعاؤه حتى لعله يكون متحققًا بالفناء ومعناه روحًا وقلبًا، ولا يغيب عن كل ما يجرى عليه من قول وفعل، ويكون من أقسام الفناء: أن يكون فى كلّ فعل وقول مرجعه إلى الله وينتظر الإذن فى كليات أموره، ليكون فى الأشياء بالله لا بنفسه.

فتارك الاختيار منتظر لفعل الحقّ، فان.

وصاحب الانتظار لإذن الحق فى كليات أموره راجع إلى الله بباطنه فى جزئياتها فان.

ومن مَلكه الله تعالى اختياره وأطلقه فى التصرف يختار كيف شاء وأراد، لا منتظرًا للفعل ولا منتظرًا للإذن هو باقٍ.

والباقى فى مقام لا يحجبه الحقّ عن الخلق، ولا الخلق عن الحقّ.

والفانى محجوب بالحقّ عن الخلق.

والفناء الظاهر لأرباب القلوب والأحوال.

والفناء الباطن لمن أطلق عن وثاق الأحوال، وصار بالله، لا بالأحوال، وخرج من القلب مضار مع مُقلِّبه، لا مع قلبه.